مقدمة

تأتي هذه الدراسة ضمن مشروعي البحثي الذي حددته لنفسي منذ زمن ليس بالقصير، وهو في مجمله يدور حول دراسة العلاقة بين الدين والسياسة، ونشأة وتطور تلك العلاقة في أي مجتمع إنساني ومن ثم استخلاص الأنساق الفكرية الحاكمة والمؤطرة لها، وما يمكن أن ينتج عن تفاعلهما ـ الديني والسياسي ـ من أنساق جديدة تتجه اعتدالًا أو تشددًا طبقًا لظروف هذه العلاقة، وما هي المتغيرات التي يمكن رصدها فيما يتعلق بالدين عندما يدخل معترك السياسة؟ كمحاولة البعض توظيف الدين لإضفاء شرعية زائفة على المواقف السياسية عبر لَيّ عنق الرؤى الدينية لتتواءم والموقف السياسي المُسبق، وفي المقابل انصياع القرار السياسي لرغبة ورؤية رجال الدين، وأثر ذلك كله على المجتمع، ومن ناحية أخرى أثره على الفكر الديني ذاته في اقترابه أو ابتعاده عن مقصده الذي أُنزل من أجله.

وفي هذه الدراسة تأتي إسرائيل كنموذج دراسة حالة إذ تجسد بشكل أقرب للمثالية كل أزمات وإشكاليات ومحددات العلاقة بين الديني والسياسي، ومن ثم انعكاس مخرجات تلك العلاقة على المجتمع الإسرائيلي من ناحية وعلى مجريات الصراع العربي الصهيوني من ناحية أخرى.

وتتبدى هذه العلاقة بين الديني والسياسي في أبرز تجلياتها في الموقف من الحركة الصهيونية داخل الكيان الصهيوني ذاته، فعلى الرغم من مرور قرن أو يزيد على انطلاق تلك الحركة، إلا أن الجدل لا يزال قائمًا حولها فيما يتصل بموقفها من الدين اليهودي ومحاولاتها توظيفه لصالح أيديولوجيتها السياسية، ففي حين يرى الطرف المؤيد للصهيونية أن تلك الحركة هي بمثابة حركة تجديد وبعث للدين اليهودي، جعلت له كيانًا مستقلًا

ودولة بعد أن كان اليهود هم مجرد مجموعة من الأقليات يعيشون في الشتات على هامش المجتمعات الأخرى، في المقابل نجد الطرف الآخر ـ من اليهود ـ الرافض للصهيونية يرى أنها ما هي إلا حركة انقلاب ضد الدين اليهودي وكفر به، نظّر لها مجموعة من العلمانيين الذين أضروا بالديانة اليهودية ضررًا بالغًا بتجاهل الرسالة الروحية لها وحصرها في إطار سياسي قومي ضيق.

وبعد الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني كدولة ظلت هذه القوى اليهودية متمسكة بموقفها الرافض للصهيونية من منطلق عقائدي، وهي القوى التي يتواجد بعضها حاليًّا داخل إسرائيل، والبعض الآخر خارجها، وقد شكلت هذه القوى في مجموعها نواة الحركات الدينية الرافضة للصهيونية التي هي موضوع هذه الدراسة.

وكان أمرًا حتميًّا أن تتخذ الدولة عددًا من الإجراءات والمواقف ضد تلك الحركات، والتي تقوّض بدعوتها الأساس الذي قامت عليه الدولة، وقد كان أبرز هذه الإجراءات والمواقف أن دعمت التيار المسمى بتيار الصهيونية الدينية ـ وهو التيار المعروف بمحاولته التوفيقية بين الفكرة الصهيونية وبين الدين اليهودي ـ لمجابهة التيار الرافض للصهيونية، وإحداث التوازن داخل المجتمع الإسرائيلي، وبين هذين التيارين بعضهما البعض من جهة، وبينهما وبين الدولة من جهة أخرى، يدور الصراع، وهو الصراع الذي يعبّر عن نفسه عندما تكون إحدى القضايا الدينية على المحك، فتتعدد الرؤى وتتصادم.

لقد كان مألوفًا في الماضي أن يتم الحكم على القوى الدينية في إسرائيل، على أنها تشكل وحدة واحدة في مواجهة العلمانيين، غير أن مجريات الأحداث أبت إلا أن تفضح الانقسامات الحادة داخل التيار الديني اليهودي ذاته، وهو ما تؤكده هذه الدراسة في شكل من أشكالها.

إذ يأخذ الصراع داخل هذا الكيان مستويات عدة؛ فهناك الصراع الديني العلماني، وهناك الصراع بين اليمين واليسار، والصراع بين المتدينين أنفسهم، وتؤكد العديد من الدراسات أن عامل الزمن من شأنه أن يؤدي إلى تذكية هذه الصراعات وتفاقمها بمرور الوقت في إشارة إلى احتمال حدوث انفجار داخلي لهذا المجتمع، وهو إعلان صريح عن فشل الاستراتيجية

الصهيونية التي حاولت صهر هذا المجتمع في بوتقة واحدة؛ فقد كانت الحركة الصهيونية قد تنبأت بإمكانية إنتاج شعب يهودي جديد ذي هوية وطنية جمعية إذا ما هاجر إلى فلسطين وأقام دولة، غير أن ذلك لم يحدث.

فإسرائيل طبقًا لرؤية العديد من المتخصصين الإسرائيليين أنفسهم هي كيان استيطاني لم ينجز دوره الوظيفي الذي أقيم من أجله والذي بشر به الآباء الأوائل للحركة الصهيونية؛ إذ لا يزال المشروع الصهيوني عاجزًا عن التحقق؛ فقد خرج اليهود من جيتو صغير إلى جيتو أكبر، وزادت كراهية العالم لهم، ولم يتخلص اليهودي من أعباء الماضي كما كان يُعتقد، ولم يتم صهره في بوتقة واحدة، ولم يشعر بالأمان، وفقد بُعده الروحي، ولم يقدم نموذجًا يحتذى في الديمقراطية كما وعدت الرؤية الصهيونية، كل ذلك يجعل من إسرائيل دولة تحمل في أحشائها كل عوامل فنائها، أضف إلى ذلك المتغير الخارجي بداية تغير موازين القوى الدولية لغير صالح إسرائيل.

وفي عبارة واحدة يمكن القول أن الكيان الصهيوني يواجه تحديات كبيرة متعلقة بمدى قدرته على الاستمرار في ظل صراعات داخلية وتعقيدات خارجية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة: في أنها محاولة لفهم جدلية العلاقة بين اليهودية والصهيونية، ليس من منظور تاريخي فحسب، ولكن عبر التركيز على فعاليات هذه العلاقة في اللحظة الراهنة، والتي عبّرت عن نفسها بقوة في شكل العلاقات بين الحركات الدينية هذه وبين الدولة الإسرائيلية، فهي علاقة قديمة حديثة.

كذلك فالدراسة تحاول في وجه من وجوهها استشراف مستقبل الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي، وهو الصراع الذي يمثّل فيه الدين اللاعب الرئيسي، خاصة بعد تنامي دور الدين والتكتلات الدينية داخله في ظل عملية أكبر من الاستقطاب على مستويات عدة، والتي شهدها هذا المجتمع في السنوات الأخيرة.

الآن سنحاول سرد عدد من القناعات التي ترسخت عبر مسيرة الدراسة لتتيسر القراءة على ضوئها، إذ تعتبر بمثابة فقرات مفتاحية من شأنها تمكين القارئ من الإمساك بالخيوط العامة للأطروحة قبل الشروع في قراءتها، ولعل أبرزها:

* تُعد حركة ناطوري كارتا وهي إحدى الحركات الدينية الرافضة للصهيونية بمثابة النموذج اليهودي الغير قابل للتحقق في ظل المعطيات الحالية داخليًّا وخارجيًّا، إذ تقدم قراءة إنسانية للدين اليهودي وهي قراءة مضادة تمامًا للقراءة الصهيونية لهذا الدين، والتي حولته لأيديولوجية سياسية تسوغ القتل والعنف وإبادة الشعوب والاستيلاء على مقدراتهم، لقد رأت ناطوري كارتا أن الصهاينة هم الأعداء الحقيقيون لليهود وأنهم أضروا ضررًا بالغًا باليهودية وحولوها من ديانة سلام لحركة قومية استعمارية، وعليه تظل قيمة هذه الجماعة في قدرتها على تقديم قراءة مغايرة للقراءة الصهيونية للدين اليهودي، قراءة تتأسس على قيم الأديان العليا القائمة على المحبة والتسامح وقبول الآخر وتساوي بني الإنسان أمام إلٰه متعالٍ.

* لا تنفك العلاقة بين اليهودية والصهيونية وما يتمخض عنها من إشكاليات تعلن عن نفسها المرة تلو الأخرى كسردية لا تتوقف عن إنتاج نفسها بشكل مثير، فالصهيونية لا تكف عن توظيف الدين سياسيًّا ومن ثم تواصل صهينته من الداخل عبر أدلجته وقتل كل أبعاده الروحية، والمتدينون الأصوليون المتمسكون بعقيدتهم لا يكفون عن إعلان رفضهم للصهيونية وفضح زيفها وتقويض أسسها، غير أنها في نهاية الأمر تمكنت من استيعاب كثير منهم بداخلها، فالصهيونية هي بمثابة الثقب الأسود الذى ابتلع تلك الجماعات وابتلع معهم ما تبقى من اليهودية من قيم إنسانية.

* ظاهرة «المؤرخين الجدد» داخل إسرائيل هي ظاهرة جديرة بالتأمل، إذ تعبر عن نوع آخر من الرفض اليهودي للحركة الصهيونية، وهو الرفض الذي تأسس على منطلقات علمية عبر التشكيك في السرديات التاريخية التي قامت عليها إسرائيل، إذ أثبتوا أن الصهيونية زيفت الحقائق كثيرًا في محاولة لتسويغ أطروحاتها، ومن ثم قدموا قراءة مغايرة تمامًا لها، فمقولاتهم تقوض أسس الخطاب الصهيوني الذي تأسس عليه الكيان الصهيوني، ومن ثم يدعون لتفكيك هذا الكيان ثم إعادة تركيبه بما ينسجم مع شروط قبول الآخر له، على أساس العدالة وحقوق الآخر والتفاهم على صيغ حقيقية للتعايش السلمي، واعتبار إسرائيل دولة علمانية، وبالتالي نزع القداسة التي كانت قد أضفتها الحركة الصهيونية عليها، وعليه يمكن إخضاعها للنقد والتغيير والتطوير كأي معطى بشري إنساني.

* واحدة من استراتيجيات إفساد الدين هي إعادة ترتيب أولوياته، فأزمة الأديان اليوم تتجلى في وجه من وجوهها في استدعاء أتباعها لبعض المعتقدات الهامشية ومن ثم إعادة تموضعها كأولوية مركزية في الدين، بل هي كل الدين، ضاربة بمقاصد تلك الأديان عرض الحائط؛ أي: الإتيان بقضايا من الهامش والقذف بها في المركز لتكتسب وضعًا جوهريًّا في الدين، وبمرور الوقت تبتلع هذا الدين وتلتهمه داخلها، ففي اليهودية طورت التيارات الدينية الصهيونية والتيارات الموالية لها نمطًا من التدين اختزل الدين في جوهر واحد وهو تهيئة الأرض لاستقبال الماشيح المُخلِّص وذلك بإبادة العرب ثم استيطان الأرض عبر إحلال يهود مكانهم، ومن ثم فكل فعل بخلاف هذا الجوهر هو من الفرعيات القابلة للغفران والتي يجب التساهل معها، لقد أفتى بعض حاخامات الكيان الصهيوني بأن فريضة استيطان الأرض تعدل كل فرائض التوراة البالغ عددها ٣٦٠ فريضة، ومن ثم فنحن أمام دين مغاير تمامًا لدين التأسيس عبر استراتيجية إعادة ترتيب أولوياته وإعادة موضعة العقائد داخله.

* يجب ألا يفسر الرفض اليهودي للصهيونية على أنه تعاطفٌ مع الحقوق العربية المسلوبة، فبعض الحركات اليهودية الرافضة للصهيونية تتبنى رؤى عنصرية للآخر بصفة عامة، وللعرب بصفة خاصة، وترى أنه لا وجود للدولة اليهودية وعودة الماشيح المُخلِّص إلا بعد طرد العرب من أرضهم، أما رفضها للصهيونية فهو أمر متعلق باستشراء التيار الإلحادي والمظاهر العلمانية داخلها، يقول الحاخام أمنون يتسحاق معربًا عن رفضه للصهيونية وكيف أنها أضرت ضررًا بالغًا بالديانة اليهودية: «**إذا كان هتلر قد حطم الشعب اليهودي جسديًّا، فإن هرتزل حطمه روحيًّا**»، والحاخام مع ذلك لا يبدي تعاطفًا مع الحقوق العربية.

* هناك ملاحظة جديرة بالتأمل وهي وجود حالة من النوستالجيا (Nostalgia) (الحنين إلى الماضي) لدى كل الأصوليات التقليدية في كل الأديان، ومن ثم محاولة إحيائه بكامل سياقاته واشتراطاته التاريخية، فتلك الأصولية لديها **غواية إعادة إنتاج الماضي بكامل اشتراطاته التاريخية**، في حين أن الماضي هو للعبرة والدرس، كما أن التعامل مع التراث الديني ينبغي أن يكون وفقًا لمقاصد الدين ذاته فلا ينبغي أن يطغى التراث على تلك

المقاصد محاولًا صياغتها من جديد، **فقبل الحفر في التراث يتحتم وضع آليات ومنطلقات تأسيسية لهذا الحفر؛ حتى لا يسقط على رءوسنا ونُدفن تحت ركامه.**

* الجماعات اليهودية شأنها شأن كافة الأصوليات المغلقة على نفسها في كافة الأديان تتوجس خيفة من العلم والمعرفة والاشتباك مع مستجدات الحداثة، باعتبارها غزوًا لروح الدين وأن في الدين ما يكفي الإنسان ومن ثم لاحاجة لأي علم آخر، هنا يتحجر الدين ويتشرنق حول ذاته ومن ثم يتحول بشكل جذري ودراماتيكي من قوة دافعة للبناء إلى عامل تراجع وتخلف.

* النمط الإدراكي المسيطر على أغلبية المتدينيين داخل الكيان الصهيوني في لحظته الراهنة نحو العرب هو باعتبارهم نفايات بشرية يجب التخلص منها، فوجودهم من شأنه أن يحول دون تحقق حلم الخلاص وعودة الماشيح. فالغالبية العظمى من رجال الدين اليهود يرون أن «**العربي الجيد هو العربي الميت**» وأنه لا خلاص طالما العرب في فلسطين، وهو أمر يجعل من المستحيل التوصل لتسوية عادلة لصراع الشرق الأوسط في ظل احتمال قوي بانقضاض هذه التيارات الدينية على سدة الحكم في المستقبل.

* أن التوظيف السياسي للدين قتل روح الدين وقيمه الإنسانية الداعية للتراحم والتعاضد والتعاون بين البشر، إذ حولته القوى المتلاعبة به إلى برنامج سياسي وأيديولوجية للقتل والإبادة بل وقسمت العالم إلى فسطاطين: أخيار وأشرار. لقد تم ذلك عبر استراتيجية قراءة النص الديني قراءة حرفية انتزعته من سياقه ومن ثم تم إسقاطه على سياق وواقع مغاير تمامًا، وهي ذات الاستراتيجية التي تتبعها جل التيارات المتشددة في كل الأديان.

وفي النهاية يراهن الباحث على دور رئيسي سوف تلعبه التيارات الدينية في المستقبل، وبالتحديد فيما يتعلق بمستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، وهو الصراع الذي من المحتمل أن يكون للدين فيه الكلمة الأكبر في ظل تصاعد المد الديني على الصعيد العربي وتنام ملحوظ لقوى الإسلام السياسي واتجاهها نحو أعلى السلطة، أما على الصعيد الإسرائيلي فيؤكد كثيرون اتجاه إسرائيل نحو حكم ديني وسيطرة اليمين الديني المتطرف على مفاصل الدولة، وهو ما يقود إلى الخوف من سيطرته على الحقيبة النووية، وهو هاجس عربي

كما أنه هاجس إسرائيلي، هاجس عربي متخوف من توجيه هذا السلاح النووي لتدمير المنطقة العربية بحجة التعجيل بالخلاص الديني واستدعاء نهاية العالم ليقوم على أنقاضه فردوس أرضي يهودي يدوم لألف عام تأسيسًا على ما يعتقده هذا اليمين الديني، وهاجس إسرائيلي علماني لا يرى في سيطرة اليمين الديني على الحكم إلا نهاية للمشروع الصهيوني ذاته بتحول الكيان الصهيوني إلى نموذج حكم ثيوقراطي متشدد. والله أعلم.